المشروع الوطني.. اعادة صياغة أم رؤية جديدة؟

د.غازي حمد *

المشروع الوطني سيرة مليئة بكثير من صور الماضي المجيد والواقع المؤلم ....

ولأنه يمثل طموح وأحلام الشعب الفلسطيني، فإن تعلقنا به كبير لإخراجنا من الأنفاق المعتمة وحالات الحيرة وساعات الشدة . المشروع الوطني هو حبل النجاة من حالة التناقض والتعارض والانقسام الأفقي والعمودي .. هو بلسم لأمراض التعصب الحزبي وضيق الأفق وقصور الرؤية والفكر الاحادي والنظرة السطحية .. هو نقطة تجمع للشتات السياسي وجمع للطاقات الوطنية بدلا من اهدارها في سجالات عقيمة.

نحن بحاجة بالفعل إلى مشروع وطني حقيقي يرسم الطريق ويزيل الغموض ويجيب على الاسئلة المحيرة ويخرجنا من حالة التيه والأوهام المبالغ فيها أو الأماني المشبعة بالشعارات .. إنه يضعنا على "السكة" ويكشف لنا عن " إشارات المرور" وينبهنا من المخاطر والمزالق .

هل لدينا مشروع وطني؟

هذا السؤال يبدو مشروعا رغم غرابته !! لأن الحالة الفلسطينية بكل تعقيداتها وتناقضاتها وحالة التنازع القائمة بين البرامج السياسية والانقسام في النظام السياسي والتراجع في مستوى دعم وتأييد القضية الفلسطينية يفرض هذا السؤال ليس من باب الإنكار عموما ولكن من باب البحث العميق عما اذا كان هذا المشروع قائما بالفعل أم أنه متوار وراء برامج حزبية أم أنه تراجع بفعل الكثير من التغيرات

* اعلامي فلسطيني

السياسية ولم يعد واضحا أو متصدرا بوصلة التحرك السياسي الفلسطيني ؟.

إن أزمة المشروع الوطني ليست أزمة طارئة أو جديدة بل لها امتداد على طوال التاريخ الفلسطيني، حيث خضع هذا المشروع إلى صراعات ونزاعات عائلية وحزبية ومحاور اقليمية ودولية ما أخرج مشروعا غير واضح المعالم والمراحل والأهداف . بل إن الفلسطينيين آثروا أن يجتهدوا في خلق طرق ووسائل لتطوير المشروع الوطني من خلال رؤىً وأهداف حزبية وليس من منطلق الرؤية الوطنية الشمولية .الحالة الفلسطينية تفرض إعادة "إنتاج " وتطوير وتحسين المشروع الوطني بناء على " الأصول " التي قام عليها واستحضارًا للتغيرات التي فرضت نفسها على المنطقة وتقييما للتجربة الفلسطينية بكل أبعادها .

من الكارثة أن نبقي المشروع الوطني مغيبا تحت مسميات أخرى , لأنه ثبت بالتجربة إنه لا يمكن استبدال المشروع الوطني بمشروع حزبي أو فصائلي ولا يمكن بحال تجاوزه أو الانتقاء منه أو فصله عن الحالة الفلسطينية القائمة .

أزمة المشروع الوطني

إن عملية تشخيص مشكلة وأزمة المشروع الوطني معقدة بسبب التراكمات الكثيرة التي علقت بالمشروع . يجب أن نسأل أنفسنا أين تكمن أزمة المشروع الوطني .. هل هو في غياب الإجماع الوطني ..هل هي أزمة قيادة .. هل هو في عدم القدرة على صياغة رؤية وطنية واقعية .. هل هو في غياب الدعم العربي والدولي ...الخ .

ربما كانت مشكلتنا دوما كفلسطينيين أننا نجنح دوما إلى العمل الحزبي الأحادي وكانت نزعتنا نحو العمل الجمعي والوفاق الوطني ضعيفة وقاصرة , وهو ما سمح لرؤيتنا الاستراتيجية أن تتقزم , وسمح "للأغراب" أن يدخلوا في ثنايا جلودنا حتى توزعنا ما بين احلاف وتيارات .

بالرغم من أننا نعيش في أصعب منطقة ونواجه اشرس احتلال ونخوض أعقد صراع على المستوى الإقليمي والدولي إلاّ أننا لم نرتق إلى مستوى هذه التحديات في تعزيز الصف وتوحيد الرؤية , وفضلنا أن نعمل "كفصائل " وأن نتمايز كتنظيمات, وأن نتفاخر بانجازات "حزبية ", وأن نعلي قيمة الحزب على قيمة الوطن مما أدخلنا في متاهة قاسية وصحراء شاسعة وخلافات لا حدود لها .

أصبحت الساحة محكومة بالبرنامج الحزبي واللون الحزبي والشعار الحزبي , واستبعد البرنامج الوطني تماما وصار في عداد الغائبين, إلى أن يلتفت اليه في المناسبات والخطابات والشعارات .

قضيتنا مضى عليها اكثر من ستة عقود ولا نزال نراوح مكاننا , إلا القليل من الإنجازات التي لا تتماهي مع حجم التضحيات الكبيرة التي قدمناها , ومرت علينا حروب وثورات وانتفاضات ومسيرات سلام

واتفاقات واستيطان واغتيالات ونهب للأرض وللسكان ... ثم اعتقدنا أننا نستطيع أن نواجه ذلك كله ببرنامج حزبي أحادي !! .

ثم إن المشروع الوطني الفلسطيني قد تم الانقلاب عليه من حيث الجوهر والمضمون من قبل بعض القوى السياسية ، وانقلبت أدوار التنظيمات فأصبحت بدلاً من أن تعبر عن مصالح الشعب، توظف الشعب لخدمتها، بل أمسكت به من خلال مشروع سلطوي، هو الوحيد الذي مكنها من ضبط المجتمع قسرياً، بعدما كان منضبطاً طوعياً لها من خلال التزامه المشروع الوطني الذي تحمله، وهذا ما صعَّب ولادة البديل، بعد أن كان الشعب الفلسطيني محتفظاً بحيويته وقدرته على التجدد والإبداع.

وقد تجاوزت أزمة المشروع الوطني الفلسطيني إلى أن تصبح أزمة اجتماعية أوصلت المجتمع إلى حالة من العجز والترهل والكسل عن وقف التراجع أو إنتاج أدواته البديلة.

واضح أن هناك أزمة فكرية متمثلة بعجز العقل الفلسطيني عن إدراك وجود أزمة المشروع الوطني الفلسطيني مبكراً، الأمر الذي فاقم الأزمة وربما قادها إلى نقطة اللاعودة. كما أن أزمة المشروع الوطني الفلسطيني لم تتمثل في تحقيق أهدافه فقط بل في عدم اعتراف الجهات المعنية بمسؤوليتها عن الفشل أيضاً، ناهيك عن أنها غطته بفظاظة من خلال وسائل شتى أخطرها إعادة تأسيس كافة الأمور، بدءاً من إعادة تعريف الأهداف وصولاً إلى استبدال الولاء على أساس المبادئ إلى الولاء على أساس المصالح.

ما جرى عرضه من مشاريع على الساحة الفلسطينية من حين لآخر أكد أن المسألة تتمحور حول "إعادة إنتاج الأزمة" من جديد وتعميق حالة التصادم والمواجهة وعدم تقبل الآخر بدلا من الاستناد إلى حالة من التعاون والتكامل والعمل المشترك "؛ فكل طرف يحمل الآخر مسؤولية فشل المشروع الوطني ويعتبر أن لديه الحقيقة المطلقة في صحة المشروع الوطني . هذه الحالة مزقت المشروع الوطني بين اتجاهات وتيارات متعارضة وابقته تائها ضعيفا فاقدا للهوية والمسار الصحيح . إن العقلية الجمعية غيبت تحت طغيان العقلية الحزبية والتي " حوصلت " المشروع الوطني داخل بوتقتها .

قراءة سياسية مغلوطة

أحد مظاهر الازمة في المشروع الوطني هو عدم امتلاك القدرة على قراءة الاحداث والمتغيرات السياسية بطريقة مهنية وموضوعية تخدم الرؤية الاستراتيجية وتحقق المصالحة للقضية الفلسطينية , مما يغرق القضية في أزمات ومسارات تائهة . فبعض القوى تقرأ المتغيرات والأحداث السياسية من باب أيديولوجي محض يفتقد للرؤية السياسية الواعية , وبعضها يقرأها من باب العجز وعدم القدرة على إحداث التغيير باعتبار ان القوى الكبرى هي التي تتحكم بمسار القضية برمتها , وبعضها يقرأها من زاوية ضيقة تفتقد

للبعد الشمولي الذي يمكن من استثمار الأحداث والمتغيرات بشكل جيد .

القراءة الخاطئة قادت الى كوارث على مر التاريخ الفلسطيني وأدت إلى فقدانه الكثير من المواقع الميزة والفرص الثمينة بل ودفعته إلى الوراء عشرات السنين وحملته أعباء لم يكن من المفترض تحملها .

إن الساحة الفلسطينية تواجه مشكلات عضوية وتكوينية، فهي حركة تعتمد كثيرا على الخارج والمعادلات الإقليمية والدولية ،أكثر مما تعتمد على شعبها؛ بل إن شعبها يعتمد عليها، في الغالب، لتأمين موارده المالية، وحاجاته الحيوية.

على سبيل المثال لا الحصر , فإن قراءة الثورات العربية من خلال "مناظير " حزبية ومن خلال مفاهيم أحادية أدت إلى تشتت القدرة على استثمار هذه الثورات لصالح الشعب الفلسطيني وبات كل طرف يضع حساباته الخاصة ما بين متخوف ومتوجس وما بين متأمل وطامح .

ثم إن قراءتنا للكثير من الأحداث المفصلية في المنطقة مثل الحرب على العراق والانسحاب من لبنان وقطاع غزة وبروز قوى سياسية جديدة لم ترتق الى مستوى استثمارها.

قراءة المصالحة الفلسطينية تنطبق عليها نفس القاعدة , فهناك من يخشاها باعتبار انها ستقلص من صلاحياته وامتيازاته وهناك من رأى انها ستفقده القدرة على التحكم في الدفة , ولذا ظلت المصالحة تدور حول نفسها سنوات وسنوات دون ان تتقدم .

باختصار شديد يمكن تلخيص إشكالات المشروع الوطني بما يلي:

١- غياب تعريف المشروع الوطني من حيث الهوية والايدلوجيا , فالمشروع الوطني خضع لتعريفات كثيرة ومتشعبة ادخلت المشروع في متاهة بين مختلف الأيدولوجيات والتيارات السياسية.

٢- انحسار فلسفة الإجماع الوطني من حيث توفر العقلية الجمعية والعمل المشترك.

٣- قراءة معمقة وواعية للاحداث والمتغيرات السياسية بما يخدم رؤية المشروع الوطني.

٤- بروز معوقات مثل قيام السلطة الفلسطينية التي استحوذت على مقاليد الأمور في الساحة الفلسطينية وغيبت منظمة التحرير وعدم القدرة على تمييز دورها عن المنظمة مما أدى إلى اختلاط واختلال الأمور.

٥- فشل المسيرة السياسية ووقوع الحالة السياسية الفلسطينية تحت ضغوط الحلول الآنية والجزئية.

٦- الانقسام الفلسطيني شكل ضربة قاصمة للقدرة على إنجاز مشروع وطني موحد.

ليس قفزا على البرامج الحزبية

حتى لا يفهم خطأ، فإن المشروع الوطني ليس قفزا على البرامج الحزبية بل هو تجميع وتصحيح وتنقيح

, وبناء على ما كان. هو " طبعة منقحة " للمسيرة الوطنية بغناها الثوري والسياسي. البرامج الحزبية لا يمكن , بتفرقها وتشرذمها , أن ترسم الخارطة الصحيحة للتحرير بل لا بد من عمل مشترك ورؤية استراتيجية وتكتيكية واضحة المعالم, لأن بعضها منقوص الرؤية وبعضها مجزوء غير مكتمل . بعض البرامج الحزبية تتبنى خيارات أحادية أو وسائل قديمة متهالكة وبعضها الآخر لا يزال يعيش في عوالم الستينات والسبعينات. إن المشروع الوطني يمكن أن "يجبر" العثرات في البرامج الحزبية ويعمل على معالجة القصور فيها , ويمكن أن يخلق منها مزيجا متناسقا متكاملا .

المشروع الوطني , ببساطة , شديدة , يمثل البيت الذي يجمع القوى السياسية تحت مظلته الدافئة ويوفر ساحة خصبة للعمل الصحيح والموجه . هو يمثل نقطة التقاء للقواسم المشتركة للجميع , ينقح الخلافات ويهذبها , يعزز نقاط الإتفاق ويقويها , يرسم الطريق بوضوح من حيث الأهداف والوسائل والمراحل , يختصر الوقت والجهد ويعطي ضمانة لمدة قرن أو يزيد .

من خلال بوابة الحوار

كيف يمكن ان نخرج المشروع الوطني إلى النور ؟ ليست هناك سوى وسيلة وحيدة : الحوار .

الحوارات الفلسطينية كانت دوما تنصب على معالجة قضايا جزئية أو تجاوز الأزمات , ولم تكن القضايا الاستراتيجية (فكرا وتنفيذا) حاضرة , لذا ظل العمل الوطني متأرجحا بين كتل الأزمات التي عصفت بالحقل السياسي الفلسطيني وظل عرضة للتجاذب والشد.لم يعرف الفلسطينيون كيف يميزون بين ما هو استراتيجي ومرحلي , بين ما هو حق وحقيقة , بين ما هو طموح وبين ما هو ممكن , لذا فقد اختلطت الأمور بين السياسي والتاريخي , وبين الأيديولوجي والواقعي .

إن الحوار الفلسطيني غرق في سنواته الأخيرة في معالجة الأزمات السلطوية وفي تفاقم الأزمة بين السلطة والمعارضة وغابت استراتيجية التحرير تماما حتى غدا الحديث عنها ضربا من التمنيات .

لقد قاد غياب القضايا الاستراتيجية إلى استدراج السلطة إلى حلول جزئية وامتيازات بسيطة ووعود مستقبلية ليس لها رصيد كبير على أرض الواقع , في نفس الوقت جر القوى السياسية إلى حلبة الخلافات الداخلية التي استنزفت طاقة كبيرة ووقتا ثمينا.

وبالرغم من أنه تم الالتفات الى هذه القضايا الاستراتيجية في وقت اشتداد الأزمات ووصول الحالة الفلسطينية إلى طريق مسدود , إلا أن ما تم انجازه كان في إطار تجاوز الأزمات , وظل في سياق العموميات التي تتيح تفسير الأمور بطريقة مفتوحة. والغريب أن كل ما تم الإتفاق عليه لم يجر مجرى التنفيذ والتطبيق , ما يضع علامة استفهام كبيرة حول صحة وواقعية ما تم التوصل إليه , فضلا عن

الفشل في خلق حالة فلسطينية تستند إلى الإجماع الوطني.

إن الحوارات الفلسطينية لم تنجح بسبب الكثير من العراقيل والعقبات التي وقفت أمامها , ومن أهمها , غياب العلاقة المستندة إلى التعايش والإنفتاح وتقبل وتفهم الآخر , والتمترس وراء البرامج الحزبية والخوف على المكتسبات السلطوية , فضلا عن قصور الفهم السياسي الذي يصعب الخروج من العقلية الحزبية إلى أفق العمل الوطني . لذا فإن جولات الحوار التي بدأت منذ العام ١٩٩٣ وإلى يومنا هذا لم تنجح في صياغة مشروع وطني يوفق بين مختلف البرامج السياسية أو يراعي التغيرات الكبيرة التي برزت في المنطقة .

إن الحوار الفلسطيني يحتاج إلى عدد من المقومات التي تضمن نجاحه وسيره في المسار الصحيح , ومن هذه المقومات النية الصادقة / والإرادة /الوعي الوطني / القابلية لمفهوم الشراكة/ .

النية الصادقة تعكس القابلية والجدية في التفاعل مع القوى السياسية في استخراج المشروع الوطني من بطن التجربة السياسية الطويلة دون شوائب المكتسبات الحزبية والمصالح الفئوية . أما الإرادة فهي التي تعكس القدرة على الاستمرار والمثابرة حتى الوصول إلى الأهداف المرجوة , أما الوعي الوطني فهو من المقومات الرئيسة التي تتيح نشر ثقافة الوعي الوطني الواسعة وليس الثقافة الحزبية الضيقة , والتي تفتح الباب أمام علاقة وطنية راسخة قائمة على الفهم الواسع وهضم التجربة والقدرة على استشراف المستقبل . أما القابلية للشراكة فإنها الجسر المتين الذي يربط بيم مختلف القوى السياسية ضمن إطار القواسم المشتركة .

تحديات كبيرة

إن صياغة المشروع الوطني ليس بالأمر السهل أو الهين , هو سيواجه الكثير من العقبات والتحديات، والتي من أبرزها:

١- وجود البرامج الحزبية التي تتناقض في بعض النقاط والمواقف.

٢- الحالة الفلسطينية القائمة بما فيها من تعقيدات من حيث وجود السلطة الفلسطينية وقوى معارضة.

٣- الإنقسام الفلسطيني يمثل عقبة كبيرة أمام صياغة المشروع الوطني.

٤- تغير الأوضاع في الساحة العربية والدولية بما يتطلب وضعها في الاعتبار.

الخروج من الأزمة

لا زالت هناك إمكانية لإعادة صياغة المشروع الوطني على الأركان والأعمدة القوية الراسخة التي لا خلاف عليها بين جميع أطياف العمل السياسي . وهذه الأعمدة تتمثل في :

١- تعريف المشروع الوطني.

٢- مبادىء وأسس المشروع الوطني.

٣- المحددات العامة والضوابط التي تحكم المشروع الوطني.

٤- الأهمية والأهداف والمرحلية.

٥- أدوات ووسائل المشروع الوطني.

٦- المرجعية والتمثيل.

وحتى يكون المشروع الوطني مقبولا من قبل القوى السياسية وقادرا على ترجمة التطلعات الفلسطينية إلى واقع وحقائق فإنه ينبغي أن يتسم بالوضوح والتفصيل واستحضار الواقع بكل تعقيداته والمستقبل بتوقعاته .

هناك حاجة ماسة أن يشارك في صياغته سياسيون وقانونيون وخبراء في تخصصات اخرى, باعتبار أن القضية الفلسطينية هي محط اهتمام من قبل سياسيين ومفكرين , حتى يخرج قويا ممكنا قادرا على تقديم إجابات شافية.

قد تكون المشكلة الرئيسة في تحديد الوسائل والمراحل . هي عقدة صعبة لكن يمكن حلها . إذا اتفقنا على الأهداف الرئيسة وتشخيص طبيعة الواقع القائم بكل توازناته وتعقيداته يمكن وضع قائمة الوسائل بكل سهولة. في حال اختلفنا يمكن أن نخلق حالة من التكامل في وسائلنا . المبدأ الرئيس هو ألا نستثني أي وسيلة تساعدنا على تحقيق أهدافنا . المهم كيف ومتى نستخدمها بطريقة صحيحة .